قراءة ثقافية فى مسرح باكثير الإسلامي

إعداد: أمل خلاف صابر

مقدمة :

يمثل باكثير بجهدة المتنوع وعطائه الخصب وتجاربه فى خوض ألوان التعبير المسرحى سنوات طوال شخصية جديرة بالبحث والدرس العلمى الدقيق ، وان كانت هناك بعض الدراسات الجزئية السريعة التى ظهرت فى الدوريات الأسبوعية ، والشهرية متناولة لبعض هذه المسرحيات؛ولكنها تخضع لطبيعة التناول الصحفى كما كانت هناك بعض الأعمال الأكاديمية التى تتضمن فى موضوعاتها العامة عن المسرح تحليلا ودراسة لبعض أعمال باكثير وخاصة ذات المصدر الأسطورى ، ولكن تناول هذه المسرحيات كانت تمليه طبيعة الموضوع الأساسى الذى يدور حوله البحث ويأتى فيها مسرح باكثير فرعاً أو جزءاً صغيرا فى أغلب الأحيان، وكذلك دراسة مادة مسرحية تمتاز بالأصالة وتلمس خصائص الاتجاه الإسلامى فى مسرح باكثير،لقد كثرت الدراسات التى تناولت المسرح والنصوص المسرحية بالنقد والتحليل، بينما قلة الدراسات التى تتناول آليات التحليل الثقافى بالدراية والتطبيق ومتابعة السياقات الثقافية التى أنتجته ؛ لذلك آثرت الباحثة أن تتناول هذه الدراسة من خلال منهج جديد أطل على عالم النقد ؛ مما دفعها لاختيار هذا الموضوع نظراً لأهمية المسرح فى حياتنا .

إن هذه الدراسة تطمح إلى أن تقدم رؤية في مسرح باكثير الإسلامي من خلال البحث فى التقنيات الفنية التى استخدمها الكاتب ، وتوضح نظرته الفنية والفكرية لعالمه المحيط_فيطرح العنوان عدة تساؤلات عن المقصود التحليل الثقافي ؟ وسبب اختيار باكثير ؟

ففى مسرح باكثير مادة خصبة للبحث متنوع العطاء غزير الانتاج ولا يزال كم كبير من نتاجه مهملا لم ينشر (مخطوط إلى الآن).

إن هذه الدراسة ستدور حول التحليل الثقافى فى تحديث أدواته والتوسل بفنياته فى التجريب والكشف عن(مسرحيات باكثير الإسلامية) والأنساق الظاهرة والمضمرة فى هذه العلاقة ، ومدى تخفيها وراء الجماليات،ومدى جدوى آليات التحليل الثقافى فى خدمة هذه المسرحيات فنيًا ، وكيف أن التحليل الثقافى يمثل عاملا له أهميته فى مقاربة كاشفة من تراث باكثير، تسهم فى الكشف عن جانب من سيرة هذا الكاتب ، من خلال هذا المنهج ، بغية الكشف عن هذا الجانب المشرق في حياته ، وكيف آثر الكاتب قول الحق والتعبير عن قضايا وطنه وأمته .

وهذه الدراسة قد أنتقت أدواتها الأجرائية متوسلة بأدوات التحليل الثقافى ومنهجيته وبمكتسبات المنهج التحليلى التكاملى فى رصد هذه الظاهرة موضوع الدراسة وتحليل ملامحها ، ومن أهم الأدوات الثقافية دراسة الموروث الثقافى عند الأديب وأثره فى تشكيل العامل الدينى ، ورصد الشواهد التى اصطبغت بأثر هذا العامل وكشف الظواهر الثقافية الدينية الظاهرة المضمرة فى تلك الأعمال وتحليل للشواهد تحليلاً فنياً وفقا لمتطلبات البحث ، والكشف عن علاقتها السطحية والعميقة بالإجراءات التأويلية التى تساعد على كشف الأقنعة وتحليل الرموز ، وبلورة هذه التقنيات في ضوء القراءة الثقافية ، التى تحمل أنساقاً مضمرة تحتاج لقراءة عميقة ؛ لكشف الكم الهائل من التراكمات الثقافية ، التى تقف وراء تلك الأنساق ؛ لما تحمله من إشارات ثقافية ، وكيف وظفها لتحقيق رغباته وآماله ، فيكون التحليل الثقافي هو الأداة الفاعلة لوضع مسرحيات باكثير الإسلامية في سياقها الثقافي الذى أنتجته .

تسعى الدراسات الحديثة إلى رصد البعد الثقافي في نقد الأدب العربي في ضوء الوعي النقدي المعاصر بالتحليل الثقافي وعلاقته بالأدب والنقد ، وهناك عدة مداخل ومصطلحات نقدية متداولة في تلك النظرية منها : التاريخانية الجديدة ، والتحليل الثقافي، الدراسات الثقافية، النقد الثقافي وهو أحد المصطلحات الثقافية التى شهدت ذيوعا فى الأونة الأخيرة

فقد ظهرت مع بداية القرن التاسع عشر،وذلك عندما ظهرت علي يد" تيودوراد أدورنو"[١] أول من بلور مفهوم النقد الثقافى وهو أحد مؤسيسى مدرسة فرانكفورت، ثم جاء " شارل بيرس" ؛ ليحدد مكونات النقد الثقافى ،وأكد" ميشال فوكو" فى تحليلاته الحفرية على كيفية تشكل الممارسات فى فترة مابما فيها الأدب ،ويطرح ليتش مصطلح النقدالثقافى مسميا مشروعه النقدى بهذا الاسم تحديدا، ويعود الفضل فى طرح مصطلح الجماليات الثقافية إلى ستيفن قرين بلات [٢] ،وقد شجع" ريتشارد تشيس "مشروع النقد الثقافى فاعتبرهذا النقد ذوطابع سياسى جوهرى حيث يقول: فيجد الناقد الأدبى أنه حتما كاتب سياسى لأن الأدب يتناول الأفعال الأخلاقية والعواطف والسلوكيات، بل ربما ليمكن القول بصفة بالغة العمومية أن الأدب إقامة وتفكيك المجتمع ثم تجميعه، وقد طرح "أدموند ويلسون "فى مقاله التفسير التاريخى للأدب نموذجا مثيرا للتفكير حول النقد الثقافى فيما حدد مايعنيه بقوله : تفسير الأدب فى جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فاشتمل النقد الثقافى عنده على التحليل النفسى والجمالي فظهر التحليل الثقافي الذي طرحه على مركزية وفائدة التحليلات الاجتماعية والاقتصادية والتحليلية النفسية الجمالية .[٣]

مفهـوم النقد الثقافي:

من المعلوم أن مصطلح الثقافة عام في دلالاته اللغوية والاصطلاحية، ويختلف من حقل معرفي إلى آخر، وهو من المفاهيم الغامضة في الثقافتين: الغربية والعربية على حد سواء، فالثقافة بطابعها المعنوي والروحاني تختلف مدلولاتها من البنيوية إلى الانثروبولوجيا وما بعد البنيوية. وتندرج الثقافة مجالياً ضمن الحضارة التي تنقسم إلى شقين: الشق المادي والتقني، ويسمى بالتكنولوجيا(Technologie)، والشق المعنوي والأخلاقي والإبداعي، ويسمى بالثقافة (Culture)ومن ثم، يمكن الحديث عن نوعين من الدراسات التي تنتمي إلى النقد الحضاري، الدراسات الثقافية (Cultural studies) التي تهتم بكل ما يتعلق بالنشاط الثقافي الإنساني، وهو الأقدم ظهوراً، ويوضح الغذامي مفهوم النقد الثقافي (Cultural criticism) بأنه الذي يحلل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية، بعيدا عن المعايير الجمالية والفنية ، وهو الأحدث ظهوراً بالمقارنة مع النوع الأول، وبالتالي يعنى النقد الثقافي بالمؤلف، والسياق، والمقصدية، والقارىء، والناقد. ومن ثم، فالنقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي. ويعني هذا أن هؤلاء المثقفين كانوا ينطلقون من مسلمات ثقافية وسياسية وأخلاقية، أكثر من أنطلاقهم من مرتكز النص أو الخطاب ، وذلك باعتباره علامة ثقافية وسياقية ، تحمل مقاصد مباشرة وغير مباشرة، قبل أن يكون علامة جماليةأوفنيةأوشكلية.

ومن ثم، يهدف النقد الثقافي إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك، بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية.

ويعني هذا أن النقد الثقافي هو: فعل الكشف عن الأنساق الثقافية. (٤)

وهناك رأي أخر أن النقد الثقافي لا يلغي النقد الأدبي حيث يقول الدكتور مرسل العجمي فى حواره مع أدم يوسف في مقاله بعنوان " النقد الثقافي بديلا عن النقد الأدبي محاولة لإقصاء الحتمة التغير والتجديد ؟ " : أن النقد الثقافي لا يلغي النقد الأدبي؛ لأن النقد الأدبي إطار عام وهو فى جوهره مبحث إنساني ومحاولة بشرية لتفسير النصوص والبحث عن قوانين تنظمها ، والنقد الثقافي يعتبر حلقة من ضمن حلقات النقد الأدبي ، وقد يكون هو الابن الأخير للنقد الأدبي فى القرن العشرين ، فالنقد الأدبي أعم ، والنقد الثقافي أخص ، فالنقد الثقافي جزء من النقد الأدبي ، والجزء لا يلغي الكل ؛ فالنقد الأدبي موجود قبل النقد الثقافي وسيبقي ، والنقد الثقافي ممارسة نقدية راهنة أنية ، تضيف إلى مسار النقد العام إسهاماً ، فالنقد الثقافي أوسع مجالا من النقد الأدبي ؛ وذلك بسبب تناولاته المتفرعة فى السياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد . (٥) وبذلك يمكن القول أن النقد الثقافي وسيلة كشف أو وصف أو تحليل للعمل الإبداعي ،

وتوجيه لأدوات الناقد للتعامل معه ، فهو أنعكاس لبنية المجتمع وعلاقاته وانشطته وموروثاته ، فهو يوسع دائرة نقد النص الذي ليس بمعزل عن مبدعه وظروف عصره إلى النقد الاجتماعي الموسع .

ويعرف الغذامي النقد الثقافي : هو الذي يدرس الأدب الفني والجمالي باعتباره ظاهرة ثقافية مضمرة وبتعبير آخر، هو ربط الأدب بسياقه الثقافي غير المعلن

ومن ثم، لايتعامل النقد الثقافي مع النصوص والخطابات الجمالية والفنية على أنها رموز جمالية ومجازات شكلية موحية، بل على أنها أنساق ثقافية مضمرة تعكس مجموعة من السياقات الثقافية التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والقيم الحضارية والإنسانية، وبذلك يتعامل النقد الثقافي مع الأدب الجمالي ليس باعتباره نصاً ، بل بمثابة نسق ثقافي يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر أكثر مما تعلن. [٦]

ويري غالب الناصر أن : النقد الثقافي يشكل النظم والأنساق والقيم والرموز ، وان كل ما يحمل دلالة يصبح مادة للنظر والتحليل الثقافي باعتبار أن المدلول هذه الدال بعدا ثقافيًا [٧]

و لا يجب خلط النقد الثقافي بنقد الثقافة أو الدراسات الثقافية العامة، فالنقد الثقافي هو الذي يتعامل مع النصوص والخطابات الأدبية والجمالية والفنية، فيحاول استكشاف أنساقها الثقافية المضمرة غير الواعية، وينتمي هذا النقد الثقافي إلى ما يسمى بنظرية الأدب على سبيل التدقيق. في حين، تنتمي الدراسات الثقافية إلى الانثروبولوجيا والإتنولوجيا وعلم الاجتماع والفلسفة والإعلام وغيرها من الحقول المعرفية الأخرى. وفي هذا السياق قائم على منهجية أدواتية وإجرائية تخصه، أولا، ثم هي تأخذ على عاتقها أسئلة تتعلق بآليات استقبال النص الجمالي، فالنقد الثقافي عند عبد الله الغذامي ارتبط بالمضمر النسقي، حتى ليخفى على كتاب النصوص من كبار المبدعين والتجديديين.

وعليه، فالنقد الثقافي عبارة عن مقاربة متعددة الاختصاصات، تنبني على التاريخ، وتستكشف الأنساق والانظمة الثقافية، وتجعل النص أو الخطاب وسيلة أو أداة لفهم المكونات الثقافية المضمرة في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي،أما الدراسات الثقافية فتهتم بعمليات أنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها، وقد توسعت لتشمل دراسة التاريخ، وأدب المهاجرين، والعرق، والكتابة النسائية، والجنس، والعرق، ... وكل ذلك من أجل كشف نظرية الهيمنة وأساليبها[٨]

٢- تطـور النقـد الثقافـي:

من المعلوم أن الدراسات الثقافية (Cultural studies) قد ظهرت منذ القرن التاسع عشرأو ربما قبل هذه الفترة بكثير، في ظل العلوم الإنسانية(علم الاجتماع، والانثروبولوجيا، والإثنولوجيا، وعلم النفس، وعلم التاريخ، والفلسفة(...، وذلك مع أنبثاق الثورة الصناعية .
هذا، وقد أنتشرت الدراسات الثقافية بشكل متميز في الغرب منذ سنة ١٩٦٤م ، وذلك مع تأسيس مركز بريمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة، وبروز مدرسة فرانكفورت في الأبحاث الثقافية ذات الطابع النقدي والسوسيولوجي ؛ لتنتشر الدراسات الثقافية بشكل موسع في سنوات التسعين في مجالات عدة، بعد أن استفادت من البنيوية ومابعد البنيوية. وتشكلت على هداها نظريات ومذاهب وتيارات ومدارس واتجاهات ومناهج نقدية وأدبية وظهرت في الغرب مجموعة من الدراسات الثقافية لدى رولان بارت، وميشيل فوكو، وبيير بورديو صاحب المادية الثقافية، وإدوارد سعيد، وهومي بابا، وجي سي سبيفاك، وجان بودريار، وجان فرانسوا لوتار.[٩]

ويعني هذا أن مدرسة بريمنغهام الإنجليزية ومدرسة فرانكفورت الألمانية من المدارس التي ساهمت في إغناء الدراسات الثقافية، بيد أن الظهور الفعلي والحقيقي للنقد الثقافي لم يتحقق إلا في سنوات الثمانين من القرن العشرين(١٩٨٥م) ، وذلك في الولايات المتحدة الامريكية، حيث استفاد هذا النقد من البنيوية اللسانية، والانثروبولوجيا،والتفكيكية، ونقد ما بعد الحداثة، ومن ثم لم ينطلق النقد الثقافي إلا بظهور مجلة: النقد الثقافي التي كانت تصدر في جامعة مينيسوتا في شتى المجالات الثقافية ، وبعد ذلك، أصبح النقد الثقافي يدرس في معظم جامعات الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تعنى أيما عناية بتدريس العلوم الإنسانية .
بيد أن مصطلح النقد الثقافي (Cultural criticism) لم يتبلور منهجياً إلا مع الناقد الأمريكي (فنسان.ب.ليتشVincent.B.Leitch) ، الذي أصدرسنة ١٩٩٢م كتابا قيما بعنوان :النقد الثقافي:نظرية الأدب لما بعد الحداثة .
ومن ثم فليتش هو أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي على نظرية مابعد الحداثة، واهتم بدراسة الخطاب في ضوء التاريخ والسوسيولوجيا والسياسة والمؤسساتية ومناهج النقد الأدبي، وتستند منهجية ليتش إلى التعامل مع النصوص والخطابات ليس من الوجهة الجمالية ذات البعد المؤسساتي، بل تتعامل معها من خلال رؤية ثقافية تستكشف ماهو غير مؤسساتي وماهو غير جمالي ،كما يعتمد النقد الثقافي عند ليتش على التأويل التفكيكي ، فالنقد الثقافي عند ليتش استقراء للتاريخ والاستفادة من المناهج الأدبية المعروفة، والاستعانة بالتحليل المؤسساتي... كما أن منهجية ليتش هي منهجية حفرية لتعرية الخطابات ، بغية تحصيل الأنساق الثقافية استكشافا واستكناها ، ويعني هذا أن ليتش ينتمي إلى نقد ما بعد الحداثة، حيث يلتجىء إلى تشريح النص

تفتيتا وتفكيكا، واستجلاء الانظمة غير العقلية والأنساق الثقافية الإيديولوجية ضمن رؤية أنتقادية وظيفية، ويذكر عبد الله الغذامي أن ليتش يتفق مع جاك ديريدار فى التعامل مع النص من خلال التركيز على الانظمة العقلية واللاعقلية .

ومن أهم النقاد العرب الذين أنبهروا بالنقد الثقافي عند فإن ليتش هو الناقد السعودي عبد الله محمد الغذامي في مجموعة من كتبه النظرية والتطبيقية، مثل: النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية الغربية (٢٠٠٠م)، وكتاب : "تانيث القصيدة والقارىء المختلف" (١٩٩٩م) ، وكتاب: نقد ثقافي أم نقد أدبي (٢٠٠٤م)...

ففي كتابه القيم: النقد الثقافي الذي ظهر في طبعته الأولى سنة ٢٠٠٠م، يحدد فيه الكاتب مفهومه للنقد الثقافي، ويذكر أهم الخلفيات المعرفية التي كانت وراء ظهور النقد الثقافي، مع التركيز على (فان ليتش) باعتباره رائداً للنقد الثقافي في الحقل النقدي الأمريكي،وبعد ذلك، ينتقل الكاتب إلى توضيح عدته المنهجية التي حصرها في مجموعة من المفاهيم، كالجملة الثقافية، والمجاز الثقافي، والتورية الثقافية، والدلالة الثقافية، والوظيفة النسقية، والنسق المضمر، والمؤلف المزدوج...ومن ثم، يخلص الكاتب إلى تطبيق منهجيته الثقافية على الشعر العربي القديم والحديث والمعاصر، مركزا على أشعار المتنبي، وأبي تمام، ونزار قباني، وأدونيس.[١٠]

هذا، وقد توصل الباحث إلى أن هذا الشعر كان شعر الفحولة ، والتغني بالطاغية الذكوري ، وقد امتد هذا إلى شعر الحداثة الذي صار شعراً رجعياً ؛ لأنه يسير على النهج القديم في تمجيد الفحولة والطاغية.

أما في كتابه الثاني : نقد ثقافي أم نقد أدبي؟ ، فقد دخل في سجال نقدي مع الدكتور عبد النبي اصطيف حول مبادىء النقد الثقافي، قد تبين مدى التباعد بين الكاتبين، واختلاف وجهة النظر بينهما بشكل طبيعي .

هذا، ويصدر الباحث الجزائري حفناوي بعلي كتابا بعنوان:" مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن" ، وقد اعتمد في عرض آرائه على كتابات عبد الله الغذامي، التي تعتبر مراجع ومصادرأساسية لكل الكتابات العربية في النقد الثقافي بحثاً وجمعاً وتوثيقاً ونقداً.[١١]

أما الدكتور صلاح قنصوة في كتابه: تمارين في النقد الثقافي ، فإنه يدرس الجمل والأمثال الشعبية الشائعة والمتداولة بين الناس ، وذلك في ضوء المقاربة الثقافية القائمة على مجموعة من التصورات الفلسفية ذات الطابع الاجتماعي، لكي يقيم الدليل على أنعدام الهوة بين الإنسان العامي والإنسان المثقف ، مختلفا في ذلك مع أبي حامد الغزالي، وابن سينا، وأبي حيان التوحيدي، ومن ثم يتضمن الكتاب قواعد وتمارين تطبيقية ووضعيات للانجاز.

وعليه، يعرف صلاح قنصوة الثقافة بأنها فعالية سلوكية وذهنية وفكرية يمكن تعليمها وتعلمها، ويتم نقلها عبر الأنساق و النظم الاجتماعية وبعد ذلك، يقسم الثقافة إلى ثلاثة مستويات، ثقافة الجلد، و هى تتضمن العرق و الدين و اللغة، و ثقافة المشترك أو المتصل القومى، و الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة.

هذا، ويعرف النقد الثقافي بأنه دراسة النصوص والخطابات في ضوء المقاربة الثقافية، باعتبار أن النص حامل لثقافة معينة سواء أكانت مادية أم معنوية، قولا أم ممارسة فعلية. وبالتالي، يحصر النقد الثقافي في نقد الأساطير والأوهام على غرار تفكيكية جاك ديريدا، ونقد الأصولية الدينية تقويضا وتفكيكا، والوقوف ضد فكرة صراع الحضارات التي يطرحها صمويل هنتغتون، وتعرية الداروينية الجديدة، ونقد كل الأفكار والقضايا المستجدة في الساحة الفكرية العالمية بصفة عامة، والساحة العربية بصفة خاصة.

علاوة على ذلك، ينتقد بعض النصوص في ضوء المقاربة الثقافية كدراسة : ألف ليلة وليلة الزاخرة بالأنساق الجمالية والثقافية والفلسفية والحجاجية، كما يرصد المؤلف ثنائية الهوية والغير من خلال الدفاع عن الذات ، ولكن الكاتب يمارس في الوقت نفسه النقد الذاتي لتقويم بنية الثقافة العربية تفكيكاً وتشريحاً ورصداً.[١٢]

ومن الكتب التي تندرج ضمن النقد الثقافي ماكتبه محسن جاسم الموسوي تحت عنوان : النظرية والنقد الثقافي ، حيث يرى الكاتب أن: النقد الثقافي قد ظهر مرافقاً لنظريات مابعد الحداثة أو مابعد البنيوية، وان هذا النقد يستعين بمجموعة من العلوم المعرفية، لمعرفة أثر فعل الثقافة في المجتمعات. ويعنى الكتاب بقضية الحياة الثقافية وتعقيداتها وانساقها في المجتمعات العربية، و الكتاب في الحقيقة دعوة صريحة لممارسة النقد الذاتي، والنظر إلى الواقع بمنظار تفكيكي حقيقي، بغية التحرر من شرنقات النقص والتخلف والتقوقع الحضاري، ويرى جاسم الموسوي بأن النقد الثقافي يهتم كثيراً بتناول النصوص والخطابات التي تحيل على الهامشي والعادي والمبتذل والعامي واليومي والسوقي والوضيع، وذلك في مقابل النصوص المنتقاة للكبار والمشهورين من الكتاب والمبدعين.

ويكاد يتفق محسن جاسم الموسوي مع عبد الله الغذامي ، حينما يعتبر نظرية السرقات الشعرية وفكرة الطبقية لدى الجمحي وغيره تكريساً للثقافة المركزية القرشية، التي كانت تتحكم بشكل من الأشكال في توجيه متلقي الشعر العربي، إذ كانت تفرض مجموعة من مقاييس التقبل والاستجابة، وتشترط معايير الاستساغة الجمالية والفنية الصحيحة[١٣]

٣- المؤثـرات الثقافيـة:

استفاد النقد الثقافي نظرية وتطبيقاً من حقول ومجالات معرفية عدة، مثل: الفلسفة، والبلاغة، والأدب، والنقد، كما أنفتح على مجموعة من المناهج النقدية تمثلا أو معارضة، مثل : البنيوية، والسيميائيات، والتفكيكية، والتأويلية، والنقد النسائي، والبنيوية الانتروبولوجية، وجمالية القراءة، والماركسية الجديدة، والتاريخانية الجديدة، والنقد الكولونيالي أو ما يسمى أيضا بالنقد الاستعماري، والنقد الجنوسي... وبصفة عامة، لقد تأثر النقد الثقافي أيما تأثر بالنقد الحداثي والنقد ما بعد الحداثي على حد سواء.

كما تأثر هذا النقد الثقافي بكتابات ريتشاردز، ورولان بارت، وميشيل فوكو، وجاك ديريدا، وفي هذا النطاق، يقول الغذامي في كتابه النقد الثقافي :لقد تدرجت النقلات النوعية في مجال النظر النقدي من أطروحة ريتشاردز في التعامل مع القول الأدبي بوصفه (عملا) إلى رولان بارت الذي حول التصور من (العمل) إلى (النص)، ووقوفه على الشفرات الثقافية كما فعل في قراءته لبالزاك وفي أعماله الأخرى التي فتح فيها مجال النظر النقدي إلى آفاق أوسع وأعمق من مجرد النظر من (النص) إلى (الخطاب)، وتأسيس وعي نظري في نقد الخطابات الثقافية والأنساق الذهنية، جرى الوقوف على فعل الخطاب وعلى تحولاته النسقية، بدلاً من الوقوف على مجرد حقيقته الجوهرية، التاريخية أو الجمالية .

ويبدو من هذا أن النقد الثقافي أقرب إلى المنهج التفكيكي من باقي المناهج الأخرى ؛ نظرا لوجود مجموعة من القواسم المشتركة التي تتمثل في : الاختلاف، والتشريح، والنص المضاد، والتقويض، واستكشاف المضمر والمختلف...

وعليه، فقد ظهر النقد الثقافي في الغرب كرد رد فعل على النظرية الجمالية، والبنيوية اللسانية، والسيميائيات النصية، والبويطيقا ، وفوضى التفكيك وعدميته، وذلك باتجاهاته المختلفة: الماركسية الجديدة، والمادية الثقافية، والتاريخانية الجديدة، وما بعد الكولونيالية، والنقد النسوي ، هذا وقد ارتبط النقد الثقافي على مستوى التحليل، وتشغيل الآليات المنهجية، بمجموعة من العلوم الإنسانية، كالتاريخ، والإثنولوجيا، والانثروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، وعلوم الإعلام، وعلوم الحضارة...[١٤]

فقد تبنت الدراسات الثقافية مسألة العلوم المنتمية إلى الحقل الاجتماعي وعلوم الإنسان، واستجوبت ممارسات النقد الأدبي التقليدية وممارسات النظرية الجمالية، ولعبت فيها دورا حاسما، وهذا ما يجعلها إفرازا للنظرية البنيوية وما بعدها، وتجسيدا لما يمكن أن تفضي إليه

مابعد البنيوية من دور في الحياة العامة، وهو دور أحجمت عنه ما بعد البنيوية في صورتها التقويضية لأسباب منهجية تتعارض جذريا مع طرحها، لكن الدراسات الثقافية تبنته، واعتبرته وازع قوتها، ودافع نشاطها.

وهكذا، فالنقد الثقافي هو مجموعة من المناهج والمقاربات المتعددة الاختصاصات التي تصب كلها في الحقل الثقافي،وخدمة الأنساق المضمرة اللاعقلية والانظمة الإيديولوجية [١٥]

ويبين الغذامي أن الدراسات الثقافية : نشأت في حِجْر علماء الاجتماع ؛ لذا فالثقافة تنحو دائما منحى الاتجاه الاجتماعي، وتصطبغ الدراسات الثقافية بالصبغة الاجتماعية وانتقلت فيما بعد إلى علوم مختلفة الانثروبولوجيا،علم النفس، اللغويات، النقد الأدبي، نظرية الفن، الفلسفة، العلوم السياسي.

والدراسات الثقافية من أغنى الدراسات بالدلالات المضمرة، والأنساق المختفية، والتي تحمل تفسيراً لأشياء كثيرة، لا يمكن فهمها إلا بالعودة لدراسة الثقافة.

النقد الثقافي هو الذي يدرس النص لا من الناحية الجمالية فقط ؛ بل من حيث علاقته بالإيديولوجيات والمؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ويقوم بالكشف عنها وتحليلها بعد عملية التشريح النصّية.

وهو النقد الذي يستكشف الجماليات الثقافية في الخطاب بعيداً عن حدود الدراسات النصّية التي تستكشف جماليات الكلمة داخل إطار النص المغلق ، وهو النقد الذي يدرس الأنساق الثقافية في الخطاب باعتباره لا يصدر عن فراغ ؛ بل هو متفاعل مع بيئته وتاريخه وثقافته [١٦]

الدراسات الثقافية :

ظهر مصطلح الدراسات الثقافية لأول مرة سنة ١٩٦٤م عندما أسس ريتشارد هوجارت مركز ببرمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة أول مايسمى c.c.cs، وصاحبه فى عمله سيتورات هول ، وبول ويليس ، وتونى جيفرسون ن وانجيلا ماكروبى وتمكن الجميع من خلق وتنمية حركة فكرية دولية لتوظيف طرق التحليل الماركسية فى الدراسات الثقافية التى تحاول الكشف عن العلاقة بين الأشكال الثقافية (البني الفوقية) وبين الاقتصاد السياسى .[١٧]

ويؤكد زيزدين ساردارو بورين فإن لون فى كتابه (الدراسات الثقافية): أن مصطلح الدراسات الثقافية جاء من خلال مركز الدراسات الثقافية المعاصرة (c.c.cs) بجامعة برمنجهام ، الذى تأسس عام ١٩٦٤م .

ان كتابات كل من ريتشارد هوت جارت وريموند ويليامز وأى بي طومسون وسيتورات هول التى كانت مرتبطة بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة فى أوقات عديدة تعتبر نصوصا مؤسسة فى الدراسات الثقافية .[١٨] وقد أشار الدكتور صلاح قنصوة فى كتابه (تمارين فى النقد الثقافى) : أن مصطلح الدراسات الثقافية ، قد نشأ عام ١٩٧١م ، عندما بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام فى نشر صحيفة من أوراق عمل فى الدراسات الثقافية ، ولكنها لم تستمر طويلا[١٩]

ويقول الدكتور سعيد علوش فى كتابه(نقد ثقافي أم حداثة سلفية) عن مصطلح الدراسات الثقافية : فقد جاءت أولا من بنيوية السينيات ، التى تناولت الثقافة (بما فيها الأدب) ، بوصفها سلسلة من الممارسات ينبغى وصف قواعدها وأعرافها ، ويضطلع واحد من مؤلفات الدراسات الثقافية الباكرة أسطوريات (١٩٥٧) م للمنظر الفرنسي رولان بارت ، يضطلع بقراءات موجزة .[٢٠]

خصائص الدراسات الثقافية عند زيودين ساردار وبورين فإن لون:

تهدف الدراسات الثقافية إلى تناول موضوعات تتعلق بالممارسات الثقافية وعلاقتها بالسلطة، وتهدف من ذلك إلى اختيار مدى تأثير تلك العلاقات على شكل الممارسات الثقافية.

على الرغم من كونها كينونة منفصلة عن السياق الاجتماعي والسياسي، فإن الدراسات الثقافية ليست مجرد دراسة للثقافة، فالهدف الرئيسي لها هو فهم الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة وتحليل السياق الاجتماعي و السياسي في إطار ما هو جلي في حد ذاته.

في الدراسات الثقافية تؤدى الثقافة دورين أساسين :فهي هدف الدراسة، ومناط الفعل والنقد السياسي على حد سواء وتهدف الدراسات الثقافية لأن تكون التزاما ًفكرياً وبرجماتياً في أن واحد.

تلتزم الدراسات الثقافية بالارتقاء بأخلاقيات المجتمع الحديث، وأيضا بالخط الجوهري للعمل السياسي، والدراسات الثقافية ليست مجالاً للدراسة عديمة الجدوى؛ لكنها التزام تجاه إعادة هيكلة البناء الاجتماعي من خلال الانهماك في السياسات الحرجة؛ لذلك فالدراسات الثقافية تهدف إلى فهم شكل الهيمنة في كل مكان وتغييره وخاصة في المجتمعات الصناعية الرأسمالية [٢١]

التاريخانية الجديدة :

تسعى الدراسات الحديثة إلى رصد البعد الثقافى فى نقد الأدب العربي فى ضوء الوعى النقدى المعاصر بالتحليل الثقافى وعلاقته بالأدب والنقد ، وهناك عدة مداخل ومصطلحات

نقديةمتداولة فى تلك النظرية منها : التاريخانية الجديدة ،التحليل الثقافى ، النقد الثقافى ، الدراسات الثقافية ....

والجمالية الثقافية أو التاريخانية الجديدة ، فقد أخترع غرينبلات هذا المصطلح فىبداية الثمانينات؛ ليبين من خلاله الإجراءات القرائية التى طرحها مع مجموعة من زملائه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة مثل : لومى مونتروز(liouis Montrose) وريتشارد هيلفرسن ؛ لتأويل المظاهر التى كانت قد شكلت من خلال البحث حول كتاب عصر النهضة ، ويقول غرينبلات " التاريخانية كالإمبراطورية الرومانية العظيمة،تناقص باستمراراسمها القائم بذاته "

ويقدم معجم التراث الأمريكى معانى لمصطلح " التاريخانية ": وهو النظرية التى تقول أنه يجب على الناقد التاريخى أن يتجنب كل الأحكام القيمية .

وتجدر الإشارة إلى أن النقاد والتاريخاينين يهتمون بفحص العلاقة بين الكتابة والمجتمع ، وهو ما نعته ريتشارد ويلسون ب " نصنصة التاريخ " ، فالتحليل الثقافى ، إذن يركز بشكل واضح على التمايز الثقافى بين الطبقات الاجتماعية .[٢٢]

ومن أهم مدارس النقد الثقافي (مدرسة فرانكفورت) :

ان مدرسة فرانكفورت "عبارة عن جماعة من المنظرين الأمريكيين الألمان الذين طوروا تحليلات قوية االتغييرات الحاصلة فى المجتمعات الرأسمالية الغربية منذنظرية ماركس الكلاسيكية. [٢٣]

فمدرسة فرانكفورت "هم مجموعة من معهد البحث الاجتماعى الذى تأسس عام ١٩٢٣م فى فرانكفورت،وكان مديره هوماكس هوركهايمرمن سنة١٩٣١م حتى عودته إلى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى .

وتنطلق مدرسة فرانكفورت من الانفصال الذى يوجد بين البراكسيس والفكر،وبين العمل السياسى والفلسفة،فرفض هوركهايمروزملاؤه الإصلاح الاشتراكى والديمقراطى ؛لانهم لا يعترفون بأى فعل تاريخى،فانهم شرعوا فى نقدشامل للمجتمع الحديث ولثقافته على وجه التحديد، وقد كانت المسافة بينهم وبين الواقع الاجتماعى والسياسى كبير،فكانوا يكتبون قليلاً عن المشكلة اليهودية ،ولا ينشرون تحليلاتهم الهامة عن معاداة السامية ،فالنقدالاجتماعى يكاد يكون غائباً فى فكرهوركهايمرفى حين أن النقد الثقافى بارز الحضور فيه،وبصورة أكبرأيضا فى كتابات لأدرنو وفى أعمال توماس مان. [٢٤]

وقد قام العاملون فى معهد الدراسات الاجتماعية في فرانكفورت بألمانيا فى أواخر العشرينات وبواكير الثلاثينيات مثل ماكس هوركهايمر ، ويتودور أدورنو ،وهربرت ماركوزه ، وليو لو فنستال ، وإريك فروم ، بتحليل عدد كبير من الظواهر الثقافية بدءاً من الثقافة الجماهيرية والاتصال إلى الموسيقي الكلاسيكية والآدب [٢٥]

ويعتبر هابر ماس الوريث الحقيقي لتقاليد مدرسة فرانكفورت والمعروف أنه كرس الجانب الأكبر من جهوده النظرية لوضع أسا معياري متين للنظرية النقدية [٢٦]

ومن مدارس النقد الثقافي أيضا مدرسة النظرية النقدية التى " ظهرت فى ألمانيا فى العقد التالي للحرب العالمية الأولي من شخصياتها الرئيسية هو دكهايمر ويتودور أدورنو ، وإريك فروم ، وهابرت ماركوزه ، بينما ارتفع اسم الفليسوف عالم الاجتماع يوجين هابر ماس فى العقود الحديثة على أنه المتحدث الرئيسي للنظرية النقدية [٢٧]

وكذلك من مدارس النقد الثقافي مدرسة النقد الجديد تلك المدرسة التى ظهرت فى فرنسا فى النصف الثاني من القرن العشرين ، فقد استخدم نقادها مناهج العلوم المختلفة مثل التحليل النفسي والاجتماعي والدراسات الانثربولوجية ، من أجل تفسير وتحليل النص الأدبي أو العمل الفني وربطه بالعناصر الثقافية والظروف التاريخية والاجتماعية ومن أبرز نقادها : جان بيبير ، ريتشا روجاستون ، باشلار ولوسيان ، جولد مان ، ورولان بارت . [٢٨]

قائمة المراجع والمصادر

(١) يوسف عبد الله : النقد الثقافي وأسئلة التلقي ، جامعة أم القري ، السعودية ، ٢٠٠٨م ، ص ٧– ٨

(٢) عبد الله الغذامي : النقد الثقافي قراءة فى الأنساق الثقافية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص ١٩ ،٤٢

(٣) عبد الفتاح العقيلي : النقد الثقافي قضايا وقراءات ، دار المعرفة ، د.ت ، ص ١٥٨ –١٥٩

(٤) عبد الله محمد الغذامى : النقد الثقافي (قراءة فى الأنساق الثقافية العربية) مرجع سابق ، ص ٦٥

(٥) مرسل العجمي : النقد الثقافي بديلا عن النقد الأدبي محاولة إقصاء أم حتمية تغير وتجديد ، مجلة الكويت ، العدد ٣٥٣، بتاريخ ١٩ /٢٠١٣/٣م .

(٦) عبد الله محمد الغذامى : النقد الثقافي (قراءة فى الأنساق الثقافية العربية) ، مرجع سابق ، ص ٥٦–٦٦

(٧) غالب الناصر : آليات النقد الثقافي وعلم الأديان ، مرجع سابق ، ص ٦٥ –٦٦

(٨) عبد الله محمد الغذامى : المرجع السابق ، ص ٦٥–٦٦

(٩) ماثيو أرنولد : مقالات في النقد ، ترجمة على جمال الدين عزت ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،١٩٦٦م، ص ٣٤

(١٠) زيودين ساردار وبورين فإن لون : الدراسات الثقافية ،ترجمة وفاء عبد القادر،المجلس الاعلى للثقافة ،القاهرة ،٢٠٠٣م، ص ٨

(١١) حفناوى بعلى: مدخل فى نظرية النقد الثقافى المقارن ، دار نشر الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الجزائر ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، ص ٣٣–٧٩

(١٢) صلاح قنصوه : تمارين في النقد الثقافي ، ط١ ، ٢٠٠٧م ، دار ميريت للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٥–١٦١.

(١٣) توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: سعد هجرس، دار أويا ، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط٢، ٢٠٠٤م. ص٣٠

(١٤) حفناوي بعلي : مرجع سابق، ص١٧–٢٠

(١٥) زهور كرام: السرد النسائي العربي، شركة النشر والتوزيع. المدارس، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤م، ص٢٦

(١٦) عبد الله الغذامى : النقد الثقافى (قراءة فى الأنساق الثقافية العربية) ، مرجع سابق ، ص ٦٥

(١٧) عبد الفتاح العقيلي : النقد الثقافى قضايا وقراءات ، مرجع سابق ، ص ١٧٢.

(١٨) زيودين ساردار وبورين فإن لون : الدراسات الثقافية ، مرجع سابق ، ص ١١

(١٩) صلاح قنصوة : تمارين فى النقد الثقافى ، مرجع سابق ،ص ٦

(٢٠) سعيد علوش : نقد ثقافي أم حداثة سلفية ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠١٠م ، ص٢٠٢.

(٢١) زيودين ساردار وبورين فإن لون ، الدراسات الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٩

(٢٢) يوسف عليمات : جماليات التحليل الثقافى فى الشعر الجاهلى نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، وزارة الثقافة ، عمان ، الاردن ،٢٠٠٤م ، ص ٢٧–٢٨.

(٢٣) تيم إدواردز ونخبة : النظرية الثقافية وجهات نظر كلاسيكية ومعاصرة ، ترجمة محمود أحمد عبد الله ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ،(العدد ٢٠٠٨م) ، عام ٢٠١٢م ، ص ٩٣

(٢٤) ألان تورين : نقد الحداثة ، ترجمة أنور مغيث ، المجلس الأعلي للثقافة ، مصر ، ١٩٧٩م ، ص ٢٠٦ –٢١٣

(٢٥) تيم أدوارد : النظرية الثقافية ، مرجع سابق ، ص ٩٣.

(٢٦) ريتشارد وولين : مقولات النقد الثقافي فى مدرسة فرانكفورت الوجودية ما بعد البنيوية ، ترجمة محمد عناني ، المركز القومي للترجمة ، مصر ، ٢٠١٦م ، ص ٧٩

(٢٧) بيتر بيرجر وآخرون : التحليل الثقافي ، ترجمة فاروق أحمد وآخرون ، المجلس القومي للترجمة ، ٢٠٠٨م ، ص ٣٣

([٢٨]) عبد الفتاح العقيلي : النقد الثقافي قضايا وقراءات ، مرجع سابق ، ص ١٦٨.